فَقْدُ الكتابةِ وكتابةُ الفَقْد
اليتمُ والهجرةُ والوطنُ والمهنةُ وأشياءُ الذات

فدوى عثمان العملي

صمت طويل . . . هكذا كانت بداية الكتابة، أردت أن أكتب قصتي كمعلمة، سيطر عليَّ صمت طويل وأنا أفكر فيما مررت به من أحداث وذكريات، أفكار تتلاطم في داخلي، أشياء عديدة مررت بها في حياتي، كان لها أثر كبير في نفسي وبناء شخصيتي، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. وأنا أهيم في بحر أفكار، سمعت صوتاً ينبع من داخلي يقول: من أنتِ؟ خفت من السؤال، واحترت بالإجابة، وأحسست بصدى السؤال كالرنين في داخلي، وفجأة جاء الجواب: أنا . . . أنا معلمة.

وتردد الصدى الأصعب، كيف ولماذا أصبحت معلمة؟ وهنا بدأت أتذكر مسيرتي في الحياة، حيث عانيت في صغري فقدان والدتي، وقلت في نفسي حياتي متعددة النواحي، ولكن سأتناول ناحية واحدة، وأبدأ حكايتي مع التعليم.

تبدأ الحكاية منذ أن كنت أجلس على مقاعد الدراسة في المرحلة الابتدائية، في دولة الإمارات، حيث أتممت تعليمي في مراحل الابتدائي والإعدادي والثانوي، ومن ثم مرحلة الدراسة الجامعية في جامعة الإمارات، وتخرجت وحصلت على درجة البكالوريوس من كلية التربية تخصص أحياء/ كيمياء. وما بين بداياتي ولحظة كتابة القصة، مضى ما يزيد على أربعة عقود من الزمان، حملت في طياتها الكثير من المواقف والطرائف.

بدأت ميولي وعشقي لمهنة المعلم من إحدى معلماتي التي ألهمتني وغرست في نفسي حبها وحب مهنتها، كيف لا وهي التي ساعدتني على النجاح والتفوق في مادة التاريخ، مع أنني في السابق كنت عاجزة عن النجاح فيها، فما كان منها، بعد أن أفصحت عن عزوفي عن هذه المادة، إلا أن قسّمت لي المادة إلى وحدات، وأخذت بنصيحتها، وبفضل الله تخلصت من ذلك الكابوس ونجحت في المادة، علما أنني كنت من الثلاثة الأوائل في الصف، وميولي علمية منذ صغري.

وما زلت أذكر معلمتي التي كانت تمشط لي شعري، بعد أن فقدت والدتي في سن مبكرة، فكانت الأم والمعلمة والصديقة، ما كان لهذا السلوك من أثر طيب في تفوقي وإحساسي بأنني لست وحيدة، وأن الحياة لم تنته بوفاة الأم، فجعل الله من المعلمة أماً. كما أتذكر إشراكي في أعمال مسرحية تركت أثراً كبيراً في نفسي، فكانت باعثاً وحافزاً للتوجه في دراسة كلية التربية، حتى لا أحيد عن مهنة المعلم، مهنة الأنبياء تلك المهنة العظيمة.

ومرت سنوات الدراسة الجامعية، بحلوها ومرها وبرحلاتها العلمية، وحان موعد الخروج إلى العمل ومواجهة الحياة ومعتركها. كانت البداية عند استلام كتاب التعيين؛ كمعلمة، واتجهت إلى الجهة التي سأباشر بها التدريس، وكانت جمعية نهضة المرأة الظبيانية، قسم تعليم الكبار. كانت المدرسة خاصة بالمتزوجات، ومن فاتهن التعليم في الصغر. كم كانت صدمتي كبيرة عند دخول الصف، وكما جردت العادة، قدمتني مديرة المدرسة للدارسات، وغادرت كأنها تقول لي: «واجهي مصيرك».

الآن وقت العمل، قدمت نفسي للدارسات، وكان من بينهم من عمر والدتي، كما يضم الفصل الدراسي بين جناحيه شريحة غير متجانسة عمرياً من سن العاشرة وحتى الثلاثين أو أكثر. لا بد أن أكون حذرة في التعامل مع تلك الفئات العمرية المختلفة.

وبالمقابل، طلبت من الدارسات تقديم أنفسهم حتى نكسر حاجز الجليد فيما بيننا. كان من ضمن الدارسات -ابنة شقيق رئيس دولة الإمارات- فقالت لي بالحرف الواحد: «لا حاجة لنا للتعليم نحن نملك المال الكثير، ولا نحتاج للتعليم». قالت ذلك الكلام بلهجة خليجية غير التي أكتبها. وقالت ذلك بفعل الأمر، فما كان مني إلا أن أصابني الارتباك والخوف، فهي من العائلة الحاكمة.

كدت أحبط عندما قارنت بين ما قالت من أن لا داعي للعلم فنحن أهل المال. فوقع كلامها في نفسي وتمنيت أن يغنيني الله وقتها، وللعلم وأحصل على المال حتى لا أجهد نفسي في عمل، قد لا أنال فيه إلا التعب والمال اليسير.

ومرت الأيام، وأنا في صراع مما قالت، يا ترى هل المال أغنى من العلم أم ماذا؟ بحثت عن الإجابة حتى وجدتها، إن المال لا يشتري علماً، ولكن العلم هو الذي يجني المال. ومرت الأيام مع وجود بيئة مدرسية متكاملة من وسائل ومختبرات ورغبة في العمل. بدأت في الانسجام، وبناء علاقة طيبة مع الطالبات.

وبدأت أثير فيهن حب العلم ومواصلة الدراسة، وبالفعل أصبح من تتلمذت على يدي معلمات ومنهن مشرفات وطبيبات، وما زلت على اتصال بهن حتى يومنا هذا. ومع قلة خبرتي في تلك الفترة، كنت لا أجد حرجاً في سؤال زميلاتي، والاستعانة بالمشرف عندما كانت تواجهني عقبة في مجال العمل.

انتهت تجربتي مع الدارسات في مراكز تعليم الكبار، وتم نقلي إلى مدرسة حكومية نظامية، فوجدت جواً غير الذي اعتدت عليه. بدأت مشكلة الخوف من جديد، وذلك نتيجة تغيير أسلوب التعامل والتدريس بما يناسب الطالبات.

لا أنسى عندما وجهت إحدى الطالبات سؤالاً، كنت أجهل الإجابة عنه، وأخجل من القول لا أعرف، لأن من قال لا أعرف، فقد عرف، وما كان مني إلا أن احمرّ وجهي خجلاً، وتلعثم لساني وسقط السؤال علي؛ كالسهم الجارح، وتسارعت دقات قلبي، فشعرت الطالبة بي ورق قلبها، وقالت: «يا معلمتي، غدا نناقش السؤال!».

وكانت الرحمة تنزل علي حين يدق الجرس؛ لأخرج من الصف بسرعة البرق والعودة إلى المنزل، والبحث عن الإجابة التي وجدتها، وكان ذلك الموقف حافزاً لي للبحث العلمي والتقصي والاستعداد للدرس قبل إعطائه وتوقع ما لا أتوقعه، وأصبحت لا أكتفي بمصدر، بل بمصادر متعددة.

كما لا أنسى هذا الموقف من أحد المشرفين، عندما زارني، وبعد إعطاء الحصة، شكرني وقال لي: «يجب أن تكوني كالأم التي -على الرغم من مرونة فاكهة الموز- تقوم بعجنها لرضيعها كي يبتلعها بسهولة، فأصبحت أسهل المادة من كل الجوانب، كي تفهمها الطالبات بسهولة الموز المهروس وسلاسته.

سألتني طالبة في الصف: كيف تتم عملية الولادة والتلقيح في الإنسان؟ أصابني الحرج، ولم أستطع الإجابة عن السؤال، فما كان مني إلا أن أحضرت في اليوم التالي فيلماً علمياً أغناني عن الإجابة عن أي سؤال، وجدت فيه الطالبات ما يبحثن عنه.

وموقف آخر في درس النبات، شرحت الدرس نظرياً، ولكن شعرت أن رسالتي لم تصل إلى ذهن الطالبات، فطلبت منهن جمع عينات من نبات وبذور، وخرجنا إلى حديقة المدرسة، وتعرفنا على الأنواع المختلفة من النبات والجذور والأوراق.

كان ذلك حافزاً على ضرورة استخدام الوسائل التعليمية والأشياء المحسوسة، لما لها من دور في تثبيت المعلومة، فالطالبات جمعن الصور في ألبوم، وتم تحديد نوع وتأثير وفصيلة كل نوع من النبات.

وفي هذه اللحظة، أتوقف عن الكتابة لحظات؛ لأن الدموع تملأ جفوني، لقد تذكرت لحظة النقاش الذي دار بيني وبين زوجي، حيث قرر أن يعود بنا إلى أرض الوطن، وذلك بعد حصولي على لم الشمل، وبدأت أتذكر كم مرة حاول جاهداً زوجي الحصول على الهوية وزيارة فلسطين. وفي كل مرة يأتي الرفض إما من الاحتلال وإما من الحكومة الأردنية. عانيت أنا وهو، وقد تحمل هو العذاب؛ من أجل أن أزور فلسطين، حيث كان يزور فلسطين، ويأخذ الأبناء صغاراً معه في السنوات الأولى من عمرهم، أطفال لا حول لهم ولا قوة، ولكن الأمور تفرض ذاتها، وكان لا بد من التضحية حتى لا أحرم أطفالي من الهوية.

لم أعد أرى، ما أكتب، حيث تنهمر مني الدموع كالمطر، وتذكرت كيف سأترك الإمارات، كما تخلع الأشجار من أرضها، سوف أترك الأرض الذي احتضنتني، وعشت فيها طفولتي وشبابي، وفيها الأهل والأصدقاء والأمان والاستقرار.

وقتها، شعرت بأنني طفلة ستفقد أمها، لقد أصبحت يتيمة مرتين، مرة بفقدان الأم، وأخرى بفقدان الأرض التي عشت في أحضانها بحلو حياتي ومرها، عاملتني كفرد من أبنائها، كيف سأترك قبر أمي وأبي رحمهما الله، في أرض وسأذهب إلى وطني الأم.

سأذهب إلى مكان مجهول، وشعرت أني أسير في ظلام دامس لا بصيص نور فيه، وهكذا مرت الأيام مسرعة تحمل في طياتها ألماً وعبرة من الحياة، أصارع سكرات الموت على الرغم من ذلك وصلنا أرض الوطن.

حين وصلنا أرض الوطن، جذبني جمال الطبيعة، وشعرت بأن الإنسان، مهما غاب عن وطنه، تبقى رائحة تراب الوطن أجمل.

وقدمت إلى وزارة التربية والتعليم للعمل كمعلمة في مدارس الوطن، ولأن طبيعتي؛ كالنحلة دائمة العمل محبة للعطاء، فقد وافقت العمل كبديلة في البداية. وقد عانيت كثيراً على الرغم من خبرتي وشهادات التقدير التي حصلت عليها في دولة الإمارات، وعلى الرغم من شهادة الشهود أنني قديرة وممتازة في التدريس، ما كان له سيئ الأثر على نفسي. فكانت نقلة نوعية في مسيرتي التعليمية، فوجدت فجوة كبيرة جداً بين ما كان وبين ما أنا به.

وجدت فئة من المعلمين محبطة، وطلبة عازفون عن التعليم، بسبب الاحتلال، فكان لا بد لي من التعامل بما يناسب الواقع. ولا أنسى سؤال أحد المشرفين عندما سألني بعد أن شاهد درساً عن تشريح العين، وقد أحضرت عين عجل، وقمت بتشريحها أمام المشرف. وبعد انتهاء الحصة قال لي: «لم أشاهد درساً علمياً منذ فترة طويلة، فهل ستبقين على نفس الحماس والرغبة والعزيمة أم ستحبطين كما هو الحال؟». لم أجبه لأني أعرف ما أريد، وواصلت عطائي بالوتيرة نفسها، وتم تعييني مدرسة مصنفة ومثبتة في إحدى مدارس رام الله.

عندما بدأت التدريس هنا، شعرت وكأنني في بحر الضياع، حيث تواردت الأفكار: هل أستطيع التعامل مع أناس جدد، وكلما نظرت إلى عيونهم أرى اللامبالاة والإحباط، فيصيبني الجزع والهلع؟! حاولت بكل قوة التغلب على هذه الأوهام، وهذا الخوف، حاولت الاندماج ولكن بحذر. ومرت الأيام طبيعية إلى أن بدأنا العمل الجاد، وبدأت انهمك في العمل، أعمل ما أنا معتادة عليه: أوراق عمل، أنشطة صفية ولا منهجية، مجلات حائط، ولكن شعرت بأن الحرب قد شنت علي، وكأني أفعل شيئاً خطأ، وبخاصة عندما كنت أعامل الطالبات برفق وحنان.

وفاجأني تصرف المعلمات، حين جاءت إحدى الطالبات إلى غرفة المعلمات وطلبت مني مساعدة، وعندما ذهبت إليها ضحكت مجموعة من المعلمات، كن يدرسن الطالبة وقلن لي: «هذه الطالبة كسلانة، والطالبة التي كانت ترافقها تأخذ السنة بسنتين. فصمت طويلاً ولم أرد.

وبعد قرابة الشهر من تدريس الطالبة نفسها، اكتشفت أنها ليست كسلانة، وإنما هي بحاجة لمعاملة رقيقة، وبدأت الطالبة تحب درس العلوم، لأنني أنوّع في الأنشطة، وقالت لي فيما بعد: «أنا بحبك، وبحب مادتك يا معلمتي، يا ريت كل المعلمات مثلك». وأخذت الطالبة في التقويم الأول علامة جيدة، وبدأت أحاول تغيير نظرة المعلمات لتلك الطالبة، وفعلاً شيئاً فشيئاً، تقدمت الطالبة حتى أنها أصبحت من المتفوقات.

أما زميلتها الأخرى، فقد اكتشفت أنها تميل إلى الرسم والفن، وكانت تحاول إثارة الشغب في الصف، فكنت أقول لها لو سمحت، يمكنك أن ترسمي الرسمة على اللوح حتى أشرح عليها، ومرة على مرة، شعرت بأن الطالبة تستجيب، ولكنها بطيئة التعلم في المواد الأخرى، وبخاصة اللغة العربية، ويمكن أن يكون هذا سبب فشلها، وأصبحت كبيرة بالنسبة لطالبات صفها، فجلست معها وحاولت أن أشجعها في تصميم الأزياء، وفعلاً استجابت الطالبة وأخبرت أهلها بأنها ستتعلم الخياطة، وتركت المدرسة، ولكنها أبدعت في المجال المهني مجال الخياطة.

وبعد كل هذه السنين من الخبرة، فمنذ أن كنت شابة وتعاملت مع طالبات من مختلف الجنسيات العربية بحكم عملي في دولة الإمارات إلى أن عملت في فلسطين، أرى نفسي أمام شخصيات ذات ميول وأفكار مختلفة، وكل منها يحتاج إلى طريقة خاصة للتعامل معه نفسياً وعلمياً، وأنا متأكدة من أن الراحة النفسية للطالبات هي الخطوة الأولى للتعامل معهن، كي نبني المستقبل.

إذاً لا بد من التنوع في التعامل من حيث الأسلوب العلمي، ومحاولة استخدام وسائل متعددة حتى أستطيع أن أتعامل مع الميول المتعددة، وكم عانيت في إعداد أوراق العمل وشهادات التقدير للطالبات، فما كان من المديرة إلا إن أهملت الموضوع، ورفضت ختم شهادة تقدير لي، حيث قالت «تريدين عمل فتنة بين المعلمات». وكانت عندما تشاهدني أجلس مع الطالبات تغضب، وتطلب منهن الذهاب، وعدم الحديث معي، وهذا زادني إحباطاً من التعليم.

استطاعت المديرة بطريقتها الخاصة، نقلي من المدرسة، على الرغم من أنني تركت طالبات أحبهن ويحببني، وما زال الإحباط يسيطر علي، وحين زرت مركز القطان تغيرت نظرتي، وتأكدت من أنه ما زال هناك اهتمام للمعلم وللعلم والتعلم. رفعت شعار أن الطالب هو الابن والطالبة هي الابنة، فلابد من الأخذ بأيديهم وإعطائهم ثمرة جهودك وتجاربك وبكل الوسائل والبحث من أجل إطلاعهم على كل جديد لعلمي أنهم بناة المستقبل، ومداد الأجيال، فنحن راحلون وهم الباقون، وكما غرس آباؤنا وأكلنا، سنغرس لهم ليأكلون، فطريق العلم طريق الجنة.

مدرسة بنات الجلزون–رام الله

من إحدى زيارات المعلمين البريطانيين إلى المدارس الفلسطينية.